الإبداع والثقافة

تؤكد مسيرة الإنسان الحضارية أن ثمة علاقة بين الإبداع وثقافة المجتمع، وأن الإبداع لا يتحقق إلا فى إطار ثقافة مجتمع تشجع على الإبداع وتحتض المبدعين وتتيح فرصا خلاقة أمام المواهب للتعبير عن إمكاناتها الثرية والمتنوعة.

والإبداع إفراز للعقل وللثقافة التى تمثل البيئة الإبداعية معًا!

والعقل يأتى أولاً والثقافة فى المحل الثانى!

فالعقل ينبوع القدرة والإمكانية والموهبة، ثم إنه واحد، لأنه جوهر وجود الإنسان!

ولكن الثقافة متعددة! لأنها محكومة بالموقع، مسكونة بثوابت الجغرافيا ومتغيرات التاريخ وانساق القيم.

والعقل قد يعيش فى بيئة مخصبة للإبداع، فتتجلى قدراته الخلاقة وصروحه التفسيرية، وقد يعيش فى بيئة ، معوقة للإبداع، فتخبو إمكاناته وقدراته، ويستسلم للخرافة والأسطورة وأساليب التفكير اللاعقلانى.

وللحقيقة فإن الخرافة والأسطورة لا تجدان لهما موقعًا إلا فى غيبة العقل وضمور التفكير العلمى.

وهذا راجع لوجود ثقافات مقاومة للإبداع، مضادة للعقل، رافضة للتطور، مستفيدة من الخرافة والجهل.

وتاريخ الحضارة شاهد على وجود تلك المقاومة العنيفة للتطور، فقديما أعدمَ سقراط، وحوكم جاليليو، وأحرق برونو، فوق كتبه، وأحرقت كتبُ ابْن رشد.

ورغم قوة الثقافة المضادة للتطور، فإن الإبداع قد حقق انتصارات مذهلة فى كثير من الأحيان، لأنه تعبير عن قوة العقل ولمعان المعرفة، وضرورة التنوير للتقدم إلى الأمام.

فعاش سقراط رمزًا للبحث عن الحقيقة، وعن المعنى والقيمة والمثل، وتواصلت اكتشافات جاليليو حتى تمكن الإنسان من غزو الفضاء بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية التى مهدت لها أفكار فلاسفة عصر التنوير، وما زال ابن رشد رمزا من رموز التنوير الإسلامى، فى إعمال العقل وفى القدرة على التأويل.

وتأسيسًا على ما سبق فثمة علاقة بين الإبداع والثقافة المثلة للبيئة الإبداعية وخير مثال على ذلك العالم المصرى الفذ أحمد زويل، فهو مصرى المولد والمنشأ تلقى تعليمه حتى مرحلة الماجستير فى مصر، ثم يمم وجهه شطر الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك التقى عقله المبدع مع تلك البيئة المخصبة للإبداع، فكانت اكتشافاته العلمية فى مجال (الفيمتو ثانية)، وفى مجال الفيزياء، تلك الاكتشافات التى من شأنها أن تحقق للإنسان نقلة كيفية علمية فى كافة مناشط العلم، فى الكيمياء والفيزياء والطب والهندسة الوراثية، وعلوم الفضاء والليزر وغير ذلك من العلوم.

وباكتشافاته العلمية حصل على جوائز عالمية، أرفعها قيمة جائزة نوبل.

وبالرغم من أن المجتمع الأمريكى ، مجتمع متعدد الثقافات، متعدد العرقيات إلا أنه مجتمع واحد، انصهرت فيه عرقيات شتى وثقافات متباينة، فى بوتقة إنصهار واحدة تؤمن بالعلم وبالمنهج العلمى، والمبادرات الفردية الخلاقة، على نحو يتيح فرصًا للمبدعين أن يصلوا إلى أقصى ما تستطيعه طاقاتهم وإمكاناتهم العلمية.

والإبداع العلمى والفكرى بكل مجالاته، شىء مفارق ومجاوز للحدود العرقية والثقافية فى مجتمع يؤمن بالديمقراطية وبحرية الفرد، بإطلاق المواهب الكامنة.

إضافة إلى ذلك فإن التعليم عندهم مدعوم برجال الأعمال والمؤسسات العملاقة، والشركات الكبرى، ولهذا ينفقون على التعليم بسخاء، ويقدمون قروضًا لطلاب الجامعات كى يكملوا مشوارهم العلمى، وكثيرًا ما تسقط البنوك هذه القروض عن كاهل الطلاب بعد تخرجهم.

المهم أن المجتمع يشكل منظومة مترابطة تمثل بيئة علمية وإبداعية غير جامدة بل قابلة للتطور والتعديل والتغيير إلى ما هو أفضل، فليس هناك شىء مطلق فى مجال العلم، فكل شىء نسبى، وكل شىء قابل للتطور، وللتغيير.

والعلم بطبيعته نسبى غير مطلق، وهذا جوهر تطوره المستمر. فكل شىء قابل للتغير، والمجتمع الأمريكى استجاب لتحديات التغيير فى

التعليم ولاسيما بعد غزو المركبة الروسية (أسبونتك) للفضاء، وإحساسهم بالتخلف وبالخطر، فكان تقريرهم العلمى Nation at Risk يعكس الوعى بالتطوير فى التعليم من أجل التقدم والتغير، على نحو يتجاوز فيه المجتمع التباين الثقافى والتباين العرقى إلى وحدة الوجود والمصير والهدف المشترك والانتماء الواحد.

ولعل التجربة اليابانية فى التقدم التكنولوجى والعلمى الباهر خير دليل على أن الإبداع لا يتحرك إلا فى إطار هوية ثقافية تشجع على الإبداع وترسخه كمنهاج حياة.

ولعل أهم ما يميز الثقافة اليابانية أنها تستمد مقوماتها من أنماط ثقافية راسخة التكوين، شكلتها عوامل ثقافية وعرقية وسلالية، منحت الهوية الثقافية اليابانية، طابعها الفريد والمتميز، باعتبارها جزءًا من ثقافة صينية ضاربة بجذورها فى عمق التاريخ، استمدت مقوماتها من حضارة صينية رائدة، ولهذا فإن المكونات الأصيلة لهذه الهوية تتسم بثبات بلغ حد الرسوخ Stereotype، مَفعمَ بتمركز عرقى وسلالى وقيمى، يجعل من الأسرة معنى مرجعيًا، ومن النزعة الجماعية وروح الفريق قيمة قصوى فى العمل، ومن هنا فإن تحقيق الفردية لا يتم إلا فى إطار الجماعية حتى يبلغ الفرد إلى تقدير الذات، ليس على المستوى الفردى فحسب، بل على المستوى الجماعى أيضا، وأن التمسك بالموروث الثقافى والالتزام القيمى بالتقاليد هما دافعان للتقدم والإبداع.

فثمة انتماء رفيع المستوى، وثيق الارتباط بالموروث الثقافى، يبلغ حد الانتحار عشقًا للثقافة اليابانية، ويقوم على الوعى بالتميز العرقى وعلى اعتقاد راسخ بأن الإنجاز لا يقوم إلا على اعتماد متبادل، وتعاون ملازم، وروح فريق هى جوهر كل عمل.

وهذان النموذجان – الأمريكى واليابانى – متباينان، الأول وهو النموذج الأمريكى قائم فى مجتمع متعدد العرقيات، متعدد الثقافات، بيد أنه استطاع أن يصهر هذه العرقيات والثقافات فى بوتقة واحدة تستمد مقوماتها من روح الفريق والتسامح رغم التباين، واحترام الأقليات، وتشجيع المبادرات الشخصية والإيمان بأن الإبداع ليس له حدود عرقية أو جغرافية أو عقائدية.

أما النموذج الثانى فهو يقوم على الاعتزاز بالموروث الثقافى لأن مقوماته مستمدة من عمق تجربة الزمان فى الموقع والمكان.

والشىء الذى يجمع بين التجربتين هو: عمق الانتماء وروح الفريق والإبداع القائم على الاعتماد المتبادل، وترسيخ حرية الفرد، وتعميق إحساسه بهويته من خلال عمله.

والسؤال الآن: ماذا عن الهوية الثقافية المصرية؟

وهل تستطيع الهوية الثقافية المصرية أن تكون إطارًا يفرز الإبداع ويتيح للمواهب أن تتفتح، وللإمكانات أن تنطلق؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يحسن أن نعرض لمعنى الهوية ولمعنى الثقافة!

أولاً : الهوية: Identity

الهوية مفهوم له دلالته اللغوية واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية فقد استخدم هذا المفهوم على أنحاء شتى للتدليل على الهوية الفردية والهوية الجماعية والهوية العرقية والهوية الثقافية.

ولفظ الهوية مشتق من أصل لاتينى ويعنى أن الشيء نفسه Sameness أو الشيء الذى هو ما هو عليه، على نحو يجعله مختلفًا لما يمكن أن يكون عليه شيء آخر.

وعلى أية حال فإن هوية الشيء تعنى ماهيته، أى جوهره ولبابه الذى يعبر عن حقيقته فى كل منفرد لا إشراك فيه.

ولا يولد الإنسان وهو مزود بالهوية بالمعنى القومى، بل يكتسبه، ولهذا فإن الهوية القومية مفهوم اجتماعى نفسى يشير إلى كيفية إدراك شعب ما لذاته، وكيفية تمايزه عن الآخرين، وهى تستند إلى مسلمات ثقافية، مرتبطة تاريخيا بقيمة اجتماعية وسياسية واقتصادية لمجتمع ما.

ومن هذه الزاوية فإن الهوية الثقافية نسبية غير مطلقة، قائمة فى الزمان، غير خارجة عن نسيجه، وأية ثقافة هى - مثل كل شيء استثمار متميز فى الزمان، ذلك أن الزمن شيء نادر يمكن استثماره وقد تتصف بالجمود، وقد تتصف بالحيوية والقدرة على التعايش مع متطلبات العصر ومتغيراته.

ثانياً : الثقافة: Culture

من أكثر الكلمات استخداما، ومن أشدها غموضًا وقد يرجع هذا الغموض إلى تعدد معانى الثقافة وتباينها فى كثير من الأحيان.

بيد أن الأمر الذى لا ريب فيه أن لكل مجتمع ثقافة تميزه، وتبلور معتقداته وقيمه ومبادئه وعلاقاته الاجتماعية وأنماط سلوكه وتحيزاته الأيدلوجية.

وقد تتشابه بعض المجتمعات فى بعض أشكال الثقافة وأنماط السلوك، غير أنها تتباين عند فحص الخصوصيات المميزة لهذه الثقافة.

وتتضمن معنى كلمة الثقافة سواء فى أصولها اللغوية العربية، أم فى اللغات الأخرى مجموعة من القيم يتمثل بعضها فى الإيمان والطهارة والجمال والفطنة والتقدم والإتقان فبدون هذه القيم لا يمكن للإنسان أن يفلح فى زراعة الأرض أو يقيم العبادة بشعائرها وأماكنها .

ومن هذه الاشتقاقات اللغوية، تقف الثقافة عند المستوى الرفيع من التكوين الإنسانى من حيث هى صقل وتهذيب للسلوك وتنمية أخلاقية وروحية له، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال الإنسانى، وتكون وظيفتها إعداد وتهذيب وصقل للروح والعقل معًا.

وثمة تعريف شائع على المستوى الاجتماعى ينص على أن الثقافة ذلك الكل المركب الذى يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية قدرات أو عادات يكتسبها الفرد بوصفه عضوًا فى المجتمع.

وعلى أية حال فإن الثقافة هى الكلمة وبالكلمة أصبح الإنسان إنسانا والثقافة ثقافة

الثقافة هى المكونات الفريدة التى تميز شعبًا وأمة عن غيرها من الأمم.

الثقافة كائن حى اجتماعى نام ومتطور لا يعرف الجمود ولا يحيا بغير سند من موروثات تراكمت عبر العصور.

ومن كل ما سبق نستخلص بعض الأسس التى يستند إليها تعريف الهوية الثقافية وما تنطوى عليه من معان:

أولاً: أن تعريفات الهوية والثقافة سواء فى أصولهما اللغوية أمْ المعجمية تكاد تكون نقطة التقاء بين الشرق والغرب.

ثانيًا: إن الهوية هى ماهية الشىء أى جوهره الذى يعبر عن حقيقته.

وأن هوية الشىء تتحدد بالصفة التى تنعت عليه، بحيث تصبح الصفة والموصوف كلا واحدًا، يدل معناه على شىء كلى يميزه عن غيره.

وتأسيسًا على ذلك فإن الهوية تعنى مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة فى الأشياء والأحياء، فللمكان هويته الخاصة، كما للإنسان هويته المتفردة عن غيره من الناس، ومن ثم فإن الثوابت الجغرافية والمتغيرات التاريخية والموروثات الثقافية عناصر مكونة للهوية.

ثالثًا: أن الهوية الثقافية هى الرمز أو القاسم المشترك أو النمط الراسخ الذى يميز فردًا أو مجموعة من الأفراد أو شعبا من الشعوب عن غيره.

ومن خلال هذه الأسس يمكن تحديد الهوية الثقافية المصرية بأنها هوية ثقافية تتسم بحيوية دافقة، ووحدة عضوية لا شتات فيها، قديمة وغائرة فى عمق الزمان، شكلتها ثوابت جغرافية ثرية التنوع، و(مُتغيرات تاريخية) الرجوع إليه يتيح فهما أعمق للمستقبل، و(تراث مركب) تسيطر عليه قوة الاعتقاد، وديناميةٍ فىَ التفاعل بغير جمود أو انغلاق، وتجانس فى البشر متواصل بتواصل حلقات الزمان، ووسطية فى السلوك تترجم معانى التسامح رغم التباين فى الأعراق والأنساب والمعتقدات، فانساق القيم والعادات والتقاليد ظلت راسخة رغم تعدد الغزوات ورغم التحول من دين إلى آخر، ورغم تغير اللغة من هيروغليفية إلى قبطية إلى عربية.

وتمثل الهوية الثقافية المصرية قطبا له جاذبيته، سواء فى العصور القديمة، أم فى عصرنا الحالى.

وهذه الجاذبية القطبية هى التى منحت مصر قيمة الدور التاريخى عبر عصورها القديمة والحاضرة أيضا فكانت - وما زالت - محركة للأحداث ومركزا للعلم والحضارة، يؤثر فى الأمم من حوله، ومطمعا للغزاة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، بيد أنها كانت وما زالت - تملك خاصية الاحتواء والامتصاص والتمصير Egyptianizing لدرجة بلغ الولع بهذه الثقافة حد الهوس Egyptomania. كما يقول (برنال) الذى يوضح فى كتابه (أثينا السوداء) أن الحضارة المصرية أصل الحضارة الإغريقية، وأن ٢٠ - ٢٥ بالمائة من اللغة الإغريقية مستمدة من اللغة الهيروغليفية، وأن هيرودت هو أول من

أعلن أن أصل جميع الآلهة الإغريقية مصرى، وأن الأساطير المصرية هى أصل الأساطير الإغريقية.

والهوية الثقافية المصرية متعددة الأبعاد، ثرية المحتوى بما تملكه من لغة ودين وآداب وفنون رفيعة المستوى وتقدم معمارى وهندسى وفلكى ورياضى قد جعل من مصر قبلة لفلاسفة العصور القديمة ولاسيما اليونانيين. وقبله للأنبياء ومسرحًا لعبور رسالات السماء.

يقول طه حسين: إن تبادل المنافع بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة قد كان شيئا يشرف به اليونان، ويتمدحون به فيما يكتبون من نثر، فمصر مذكورة أحسن الذكر فى شعر القصاص اليونانيين وهى مذكورة أحسن الذكر عند هيرودوت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة.

وكان اليونانيون فى عصورهم الراقية كما كانوا فى عصورهم الأولى، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص.

ثم جاء التاريخ فلم يكذب شيئا من هذا ولم يضعفه، بل أيده وقواه، فالتأثير المصرى فى فنون العمارة والنحت والتصوير عند اليونان شيء لا يجحد ولا يمارى فيه، والتأثير المصرى تجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تمس الفنون التطبيقية، وتمس الحياة العملية اليومية وقد تمس السياسة أيضا.

تلك بعض مظاهر الهوية المصرية التى أقامت حضارتها على العلم والتكنولوجيا والوعى بالزمن كشيء نادر يمكن استثماره. فقد كانت

اكتشافات المصريين القدماء متجاوزة لحدود الزمان فلقد عرف المصريون القدماء الذرة والجاذبية الأرضية وغيرهما من الحقائق العلمية المعاصرة.

ولهذا يقول اسحق نيوتن فى كتابه المبادئ الرياضية Princepal Mathmatica بأن نظرية الذرة ونظرية مركزية الشمس والجاذبية الأرضية كانت نظريات معروفة لدى المصريين.

يقول نيوتن: لقد كان الرأى عند أولئك الذين شغلوا أنفسهم بالفلسفة وأن النجوم المرصودة تقف فى الأجزاء العليا من العالم دون حركة، وأن الأرض باعتبارها واحدًا من هذه الكواكب تتخذ مدارًا مستويا حول الشمس وقد كان المصريون هم أقدم من راقبوا السماء، وعنهم انتشرت هذه الفلسفة إلى العالم.

فقد كانت مصر قبلة الفلاسفة والمفكرين والعلماء فى العالم القديم فعلى يدى علمائها تتلمذ أفلاطون وصاغ فيثاغورث وأقليدس نظرياتهما فى الهندسة وتتلمذ أفلوطين وهبياتيا وغيرهما من الفلاسفة والمفكرين.

وقد أقامت حضارتها وبلورة هويتها الثقافية من خلال قدرتها المبدعة على الاستجابة لتحدى نهر عظيم كنهر النيل يحتاج إلى ترويض لخدمة الحضارة والإنسان.

ويصور تيوينبى Toynbee هذه الاستجابة المبدعة لتحدى النهر بقوله: إن الاستجابة الخلاقة للتحدى هى فقط التى تنبت الحضارات والمدنيات، وقد كانت الاستجابة الجماعية لتحدى نهر عظيم مثل النيل

هى التى خلقت المجتمع ومصر الحضارة وهذا راجع إلى أن نوعية التفاعل بين البشر وقوى الطبيعة، وليس قوى الطبيعة وحدها هى التى ينبثق عنها المجتمع والحضارة، ولو كان النيل هو المسئول الوحيد عن صنع مصر وحضارتها لكان قد صنع حضارات أخرى مشابهة على امتداده الطويل، ولكن هذا لم يحدث.

وتلك حقيقة فالتحديات الكبرى ، هى التى تصنع الشعوب العظيمة- إذ يتحول المستحيل – بالوعى والإرادة والعلم والبيئة الإبداعية – إلى ممكن ومتاح.

ونحن نعيش تحديات كبرى تحديات اقتصادية واجتماعية وعلمية وتكنولوجية وثقافية وتنموية.

وكل هذه التحديات تحتاج إلى حلول إبداعية، إلى حلول غير تقليدية لأنها مشكلات غير تقليدية، فى عالم تجاوز التقدم العلمى والتكنولوجى كل قدرة على التنبؤ. فى عالم تهيمن عليه مفاهيم الكوكبية والاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب والإبداع لمن أراد الموقع المتميز فى العالم، فالإبداع قوة، والإبداع قوة مالية واقتصادية أيضا.

هذه هى ثقافتنا، فلماذا لا نتخذ منها أساسًا للانطلاق إلى عالم الغد؟

فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى معظم الدول الأوروبية ينفق رجال الأعمال والمؤسسات التجارية والبنوك على التعليم وعلى مراكز البحث

العلمى، وعلى المشاريع العلمية المختلفة فى كافة جوانب المعرفة الإنسانية.

ورغم أن التعليم فى هذه الدول مرتفع التكلفة فإن البنوك والشركات تعطى طلاب العلم منحا دراسية للإنفاق على تعليمهم ويتم استردادها عند تخرجهم من الجامعة، وفى كثير من الأحيان تسقط البنوك هذه المديونية عن طلاب العلم.

إن انتماء رجال الأعمال والشركات والمؤسسات لبلادهم كبير وعميق. فهم ينفقون على العلم والمراكز البحثية وعلى المشروعات العلمية فى كافة الجوانب.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن:

لماذا بعض رجال الأعمال فى مصر يقترضون من البنوك، ويحولون هذه القروض إلى مشروعات ويستثمرون ويربحون ولكنهم لا يعطون أى شىء؟.

لقد منحت الدولة لرجال الأعمال من التسهيلات ما لم تمنحه أمة لأبنائها كى يستثمروا ويحققوا النقلة الاقتصادية على طريق الاقتصاد الحر وآليات السوق.

ولكن الغريب أن البعض منهم يقترض ليودع ما اقترضه فى بنوك أخرى غير مصرية ويستثمر أموالا ليست أمواله، فى بلدان غير بلده.

وتلك أزمات ضمير أخلاقى وقومى لا توفر بيئة صالحة للإبداع.

ثم إن الإبداع يحتاج إلى انقلاب فى العملية التعليمية، وهذا الانقلاب التعليمى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أدركنا أننا فى خطر.

وأننا فى حاجة إلى حوار تشارك فيه كافة القوى الوطنية والعلمية والأكاديمية لمعرفة الأسباب التى أدت إلى تضخم فى الدرجات دون فاعلية إبداعية تذكر، تترجم هذا التفوق فى التحصيل الدراسى. هل هو نظام الامتحانات الذى يرسخ طريقة الحفظ والتلقين والتذكر؟ أم هو سوء إعداد المعلم الذى لم ييسر المعرفة ويوضح قيمة المنهج العلمى السليم؟ أم هو كثافة الفصول على نحو لا يسمح للعلمية التعليمية أن تسير على نحو مبدع؟ أم هو ضآلة ما ينفق على التعليم بالقياس لدول أخرى فى المنطقة كإسرائيل مثلا.

بالضرورة هناك مجموعة من العوامل، الوعى بها ، وتوضيحها وعرضها هو بداية الطريق إلى تجاوزها، فى بلد يحتاج للطاقات المبدعة، وللأطفال الموهوبين، وللتعليم الذى يقدم حلولا غير تقليدية لمواجهة مشكلات غير تقليدية.